مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ لهؤلا ء المكذِّبين بالرُّسُلِ ما أهلكَ الله قبلَهم من الأُمم الماضية بتكذيبهم الرُّسُلِ، ومخالفتهم إيَّاهم فيما جاءوهم به من قويمِ السُّبُل، فلم يبق منهم باقية، ولا عَينٌ ولا أثر ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢)، ولهذا قال: ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ ﴾ أي: وهؤلاء المكذِّبون يمشون في مساكن أولئك المكذِّبين، فلا يرون فيها أحداً ممَّن كان يسكُنها ويعمُرها. ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ ﴾ (٣)، كما قال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ ﴾ (٤)، وقال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ

---

(١) السجدة: ٢٦، ٢٧.
(٢) مريم: من الآية ٩٨.
(٣) هود: من الآية ٩٥.
(٤) النمل: من الآية ٥٢.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [1]، ولهذا قال ههُنَا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ ﴾ أي: في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حلَّ بهم - بسبب تكذيبهم الرسل - ونجاة مَن آمن بهم، لآياتٍ وعِبَراً ومواعظَ ودلائل ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي: أخبارَ مَن تقدَّم كيف كان أمرُهم.

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ يُبيِّنُ تعالى لُطْفَه بخَلقه، وإحسانه إليهم في إرسال الماء إمَّا من السماء أو من الريح، وهو ما تحمله الأنهار، وينحدر من الجبال إلى الأرض المحتاجة إليه في أوقاته. ولهذا قال: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ وهي التي لا نباتَ فيها ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [2] أي: يَبساً لا تُنبت شيئاً. وليس المراد من قوله: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثَّل بها كثيرٌ من المفسرين، فليست هي المقصود وحدها، ولكنها مُرادة قطعاً من هذه الآية.

وبعد أن تحدَّث ابنُ كثيرٍ عن أرضِ مصرَ ونيلها، ووصف كيف يأتيها رزقُها من ماءٍ ممطورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديد في غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنَّان المحمود أبداً. بعد أن ذكرَ ذلك قال: وقال ابنُ لهيعة عن قيس بن حجاج عمَّن حدَّثه قال: لما فُتحت مصرُ أتى أهلُها عمروَ بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان أميراً بها -

(١) الحج: ٤٥، ٤٦.
(٢) الكهف: من الآية ٨.

حين دخل "بؤونَةُ" من أشهر العَجَم، فقالوا: أيُّها الأمير، إن لنيلنَا هذا سُنَّةً لا يجري إلا بها. قال وما ذاك ؟ قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلةً خلت من هذا الشهر، عَمَدْنا إلى جارية بِكْرٍ بين أبويها، فأرضينَا أبويها، وجعلنا عليها من الحُلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل ! فقال لهم عمرو: « إن هذا لا يكون في الإسلام؛ إن الإسلامَ يهدم ما كان قبله » فأقاموا "بؤونَةَ" والنيلُ لا يجري، حتى همُّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، فكتب إليه عمرُ: « إنك قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وقد بعثتُ إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل »، فلما قدم كتابُه أخذ عمروُ البطاقةَ، ففتحها فإذا فيها: « من عبد الله عمر أميرِ المؤمنين إلى نيلِ أهل مصر، أما بعد: فإنك إن كُنتَ إنما تجري من قِبَلَكَ فلا تجري، وإنْ كان الله الواحدُ هو الذي يُجريكَ، فنسأل الله تعالى أن يُجريك » قال: فألقى البطاقةَ في النيل، فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله السيل ستةَ عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقد قطع الله تلك السُّنَةَ عن أهل مصر إلى اليوم. ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، وقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)، وقال ههُنا: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ قال: هي التي لا تُمطِر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً، إلاَّ ما يأتيها من السيول.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ

(١) عبس: ٢٤، ٢٥.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وما رواه الإمامُ الحافظ أبو القاسم الطبري من كتاب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نيلِ مصر - وأورده ابنُ كثيرٍ في تفسيره، كما أورده في "البداية والنهاية" وإن كان الإسنادُ فيه ظاهر الضعف - إلاَّ أنَّ دلالته صحيحه من حيث إن العقائد الفاسدة لا تكون في الإسلام، وأن الإسلام يهدمُ ما قبله، وأن النيلَ لا يجري لفتاة تُلقَى فيه، وإنما الله الواحد القهار هو الذي يُجريه. ولا شكَّ أن لعمرَ كرامتُه وفضلُه، فمن الثابت قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « كُنَّا نُحدِّثُ أن السكينة تنطقُ على لسان عمر وقلبه » (١)

وفي البخاري، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ - قَطُّ - يَقُولُ: إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا، إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ » (٢)

رضي الله عنه، وعن صحابةِ رسول الله ﷺ أجمعين. فلنتدبر هدايةَ القرآن ومقاصدَه. ولنعرف ما يُوحي به قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لنتذكر ونعتبر، ولتسلم حياتنا من آثامِ الغفلة والجحود.

---

(١) أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم ٧٩٣.

(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رقم ٣٥٧٧.